خطبة صلاة الجمعة 22/ 2/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(كيف أصير عالي الهمة؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83]، قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

أيها الإخوة:

نحن في الخطبة الرابعة والعشرين من سلسلة (هموم الشباب)

عنوان خطبة اليوم: كيف أصير عالي الهمة؟

أيها الإخوة:

يعلم شبابُنا أنّ علو الهمة من الإيمان، وأنّ من علامة كمال العقل علوُّ الهمَّة، وأن الرَّاضي بالدُّون دنيٌّ، وأنَّ مَن عَلَتْ همته يختار المعالي.

يقرؤون في القرآن الكريم ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: 10 - 12]، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48]،... آياتٍ تدعوهم إلى الجدِّ والإقبال وعلوُّ الهمَّة.

غير أنّ أحدهم يرى في نفسه فتوراً في بعض الأحيان وكسلاً في أخرى، ويعلم أنّ تثبيط الهمم وتليين العزائم من مكائد الشَّيطان. فيصيبه لذلك الهم، ويسأل: كيف أصير عالي الهمة؟

وللإجابة على هذا السؤال أعددتُ هذه الخطبة.

قال علي بن حسن بن شقيق: قمتُ مع عبد الله بن المبارك في ليلةٍ باردةٍ ليخرجَ من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرتُه، فما زال يذاكرني حتَّى جاء المؤذِّنُ فأذَّن للفجر.

وقرأت عن الإمام الشَّوكاني أنَّ دروسه اليومية كانت تزيدُ في اليوم عن عشرة دروس في فنونٍ متعددة، وتقدَّمَ للإفتاء وهو في نحو العشرين من العمر.

وأخبرني شابٌ ذاهبٌ نحو الزواج؛ أنّه كان يدرس مع زملائه على شيخه من صلاة العشاء إلى الفجر في بعض الليالي، ويخاف من الزواج أن يحجبه عن هذه المجالس!.

وتبرَّع سيِّدنا عبد الرَّحمن بن عوف بقافلة بضائع، جاءته إلى المدينة، أوَّلُها بأوَّل المدينة، وآخرها بآخر المدينة.

وكان علي بن الحسين ينفقُ على مائة بيتٍ، لا يدري به أحد، حتَّى إذا مات انقطعَت النَّفقةُ عنهم، فعلموا أنَّه هو المنفقُ.

ورأيتُ بعيني بعضَ العاملين في مؤسسة إسلامية؛ وضعَ سريرَ نومه في غرفة مكتبه وراء ستار؛ لأنه يواصل جهد ليله بنهاره في بعض الأيام لخدمة المؤسسة.

كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول: إنّ لي نفْساً تواقة، وإنها لم تُعطَ من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، فلما جاءتها الدنيا تاقت إلى ما هو أفضل منها- يعني: الجنة!.

قال أبو إسحاق السّبيعي: يا معشر الشَّباب، اغتنموا قوتَكم وشبابَكم، قلَّما مرَّتْ بي ليلةٌ إلاَّ وأنا أقرأ فيها ألف آية.

هذه صورُ رجالٍ عَلَوا لما علتْ همُمهم، وسَمَوا لما سَمتْ عزائمهم، ورقوا لما قَويتْ إراداتهم.

أربعة أمور تعينك على أن تكون عالي الهمة: ضع هدفاً عالياً، ونظّم وقتك، وصاحب أصحاب الهمة العالية، والزم الذكر والدعاء.

أولاً: ضع هدفاً عالياً:

أكثر العاجزين لا هدف لهم، أو أنّ أهدافهم تافهة لا قيمة لها، أكلٌ وشربٌ وثيابٌ وتسريحةُ شعر.

لحى اللَّهُ صُعلوكاً، مُناهُ وهَمُّهُ من العيشِ، أنْ يلقى لبوساً ومطعماً

وأكثر العظماء لهم أهداف عظيمة يسعون لها، يُفلحون تارة ويخفقون أخرى، لكنّ فلاحهم إذا أفلحوا شيء عظيم.

إذا غامرتَ في شرفٍ مَرُومٍ فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

فطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ

فكلما سما هدفُ المرء ضاعف جهدَه للوصول إليه.

كان الإمام البخاري –صاحب أصحِّ كتابٍ بعد القرآن الكريم– يحضر درساً لشيخه إسحاق بن راهويه؛ فقال إسحاق في درسه: تمنيت لو نجمع كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال البخاري: فوقع ذلك في قلبي، وخرجت من المجلس وعزمت أن أفعل، ثم أخذتُ في جمع ما تمنى الشيخ، وعملتُ ستَ عشرة سنةً حتى أتممت كتابي "الجامع الصحيح".

قال محمد الورّاق: رأيتُ محمدَ بن إسماعيل البخاري في المنام يمشي خلف النبي صلى الله عليه وسلم؛ كلما رفع النبي صلى الله عليه وسلم قدمه وضع البخاري قدمه في ذلك الموضع، فأوَّلتُ ذلك أنه يتتبَّعُ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ضع هدفاً نبيلاً عالياً واسْعَ له، وسيعينك الله، فإن لم تصل إلى هدفك فإن الله تعالى سيَأجرك، وسيتمه غيرك، وتذكر أن الهدف العالي يرفع الهمة.

ثانياً: نظِّم وقتك واستثمره:

باغتنام الوقت وتنظيم الأوقات نجح من نجح، وبتضييع الوقت خاب من خاب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**» [البخاري].

يقول أهل اللُّغة: إنَّ الأصل في العصر الضَّغطُ على شيءٍ حتَّى يتحلَّب، فقولك: عَصرَ الثَّوب، أي: ضغط عليه حتَّى تحلَّب منه الماء وخرج، وفي تسمية الزَّمن والوقت في القرآن عصراً إشارةٌ إلى ضرورة أن يضغط الإنسانُ وقتَهُ ويغتنمه حتَّى يستخلص منه كلَّ نافع ومفيدٍ.

يقول أهل التَّربية: إنَّ أوَّل ما يستفيده السَّالك في طريق الله تعالى أن يحافظ على أوقاته من الضَّياع، وآخر ما يصل إليه في هذه الطَّريق أنَّه يحافظ على أنفاسه من أن تخرج بدون ذكر الله تعالى، وبدون فائدة.

ذكروا عن الإمامُ أبو يوسف تلميذُ أبي حنيفة -رحمهما الله تعالى- (اسمه يعقوبُ بن إبراهيم، مات سنة 182هـ، لكن علمه وفقهه ما زال ماثلاً إلى الآن في أذهان المسلمين وكتبهم وحياتهم)، قال تلميذه القاضي إبراهيم بن الجرَّاح: مَرِضَ أبو يوسف فأتيته أعودُهُ، فوجدتُهُ مغمىً عليه، فلمَّا أفاقَ قال لي: يا إبراهيم، ما تقولُ في مسألةِ كذا؟ قلتُ: يا إمامُ، وأنت في هذه الحالة؟! قال: لا بأس بذلك، لعله ينجو به ناجٍ!.

وقالوا عن علاء الدِّين بن النفيس، الإمام الطَّبيب المسلم المشهور مكتشف الدَّورة الدموية، من وفيات القرن السَّابع، ومازالت كتبنا إلى الآن تفخرُ به وبأعماله، قالوا عنه: كان إذا أراد التَّصنيف والتَّأليف، توضع له الأقلامُ مبريةً، ويدير وجهه إلى الحائط، ويأخذ في التَّصنيف إملاءً من خاطره، ويكتب مثل السَّيل إذا انحدر، فإذا كلَّ القلمُ وخفي رمى به وتناول غيره؛ لئلا يضيع عليه الزَّمان في بري القلم، وكان يكتب من صدره من غير مراجعة للكتب!!.

دخل مرةً الحمام ليغتسل، وبينما كان في مُستَحَمِّهِ، خرج لمكانِ خلعِ وارتداءِ الملابس، وطلب قلماً وورقاً، فكتب مقالةً في النَّبض إلى أن أنهاها، ثمَّ عاد وأكملَ اغتساله!!.

دقّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له: إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني

فارفعْ لنفسِك بعد موتِك ذكرَها فالذِّكرُ للإنسانِ عُمرٌ ثاني

وتنظيم الوقت يعلو بالهمة.

ثالثاً: صاحبْ أصحاب الهمة العالية:

فكم حَفِظَ القرآنَ حافظٌ بصحبةِ الحفاظ! نفخوا فيه الهمة فطار إليهم، وكم فقِه العلومَ فقيهٌ بصحبة الفقهاء! أضرموا بين جنبيه الهمة فلحق بهم، وكم قام بالليل قائمٌ بصحبة المتهجدين! أشعلوا في قلبه نار الحب وحرارة الهمة فسار بركبهم.

روى البخاري ومسلم عن أَبي موسى الأَشعَرِيّ رضيَ اللَّهُ عنه أَن النَّبِيَّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: «**إِنَّمَا مثَلُ الجلِيس الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ. كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ ريحاً طيِّبةً. ونَافخُ الكيرِ إِمَّا أَن يحْرِقَ ثيابَكَ وإِمَّا أنْ تجِدَ مِنْهُ رِيحاً مُنْتِنَةً**»، وروى أبو داود والترمذي عن أَبي سعيدٍ الخُدْرِيّ رضي الله عنه، عن النبيّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: «**لا تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِناً، وَلاَ يَأْكُلْ طعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**».

فلتكنْ صحبةً تعلي همتك، وتذهب بك إلى الجنة، فإن «**المرء عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكمْ مَنْ يُخَالِلُ**» [أبو داود].

رابعاً: الزم الذكر والدعاء:

لأن الذاكر جليس الرحمن، «**أنا جليس من ذكرني**» [البيهقي في شعب الإيمان]، ومن أكثرَ مجالسة الملوك أدرك عطاياهم ونال مِنَنَهم، فكيف بمن جالس ملكَ الملوك؟!.

فمن أراد أن تعلو همته فليلزم ورده من ذكر الله، ثم ليسأله جلَ جلاله أن يعطيه من الهمة العالية ما يبلغه رضاه، وإن أعجز الناس من عجز عن الدعاء.

كان رسول الله صلى الله عليهم وسلم يدعو: «**وَأَسْأَلُكَ الْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ**» [الترمذي].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**إذا تمنى أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه**» [الطبراني في الأوسط].

وبعد أيها الشباب:

هذا جوابي لكم عن سؤال كيف أصير عالي الهمة؟ ضع هدفاً عالياً، ونظّم وقتك، وصاحب أصحاب الهمة العالية، والزم الذكر والدعاء.

وتذكروا أنّ الهمة العالية لا تقف دون الوصول إلى رضا الله، ولا تتعوض عنه بشيء سواه.

اللهم نسألك الفردوس الأعلى وما قرّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، اللهم هيئ أقوالنا وأفعالنا ونوايانا لصحبة حبيبك محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة، واجعلنا سبباً لسوق الخير إلى عبادك في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين